وولت هوتمن: ابو الشعر المنسرح

بقلم ميخائيل نعيمة

تتزعم الولايات المتحدة اليوم حركات واسعة النطاق في دنيا الصناعة والسياسة والحرب والاقتصاد. ولكنها ما تزعمت بعدُ حركة ذات بال في اي فرع من فروع الفنّ والأدب والفلسفة إلا حركة الشعر « المنسرح »، فقد كان الشاعر الاميركي « وولت هوتمن » اوّل من دعا الى هذا اللون من الشعر واوّل من مارسه بقوّة العبقري، وإخلاص المؤمن، وحماسة من يحمل رسالة جديدة. ولقد فتّشت عن كلمة عربية تصلح لوصف ذلك البيان المحيَّر ما بين الشعر والنثر فلم اجد أفضل وأوفى بالغرض من كلمة المنسرح. ولا اعني انه يمت بصلة الى البحر المعروف بذلك الاسم من بحور الشعر العربية. ولكنّ في الكلمة مايعني الانطلاق وما يعني الحركة تجري الى هدفها بسهولة وبغير قيد. وتلك هي أبرز صفات هذا النوع من الشعر. فهو لا يتقيد بوزن أو بقافية. بل يجري على السجية جرياً ليس يخلو من الايقاع الموسيقي والرنة الشعرية.

لا بدّ لكل مذهب جديد، ان في الأدب أو في سواه، من شخصية قوية توجه خطاه وعبقرية فذة تتعهد نموّه. والشعر المنسرح قد وجد في وولت هوتمن مثل تينك الشخصية والعبقرية. فقد كان الرجل مديد القامة، متين البنية، وسيم الطلعة، حالم العينين، بشوش الأسارير، واسع الخيال، ذا قلب غنيّ بالمحبة وفكر طاهر من الغشّ، ونيّة صافية من الدنايا، وروح مطبوع على الصدق والبساطة. وكان يتعشق الطبيعة في كل مظاهرها، ويتعشق الحياة ما أفسدت فطرتها التقاليدُ، ولا اعترضت مجاريها سدود اللياقات والمجاملات. ولذلك كان يكره التأنق في اللباس وفي المأكل والمشرب وفي الكلام والكتابة. فيعيش، من هذا القبيل، عيشة الدراويش. وهو الى ذلك، أبعد ما يكون عن الزهد والتقشف. فالتمتع بالملذات الجسدانية في عقيدته امرٌ مشكورٌ كالتمتع بالملذات الروحانية. بل هو حاجة خلقتها الطبيعة في الجسد لغايات نبيلة. فمن عاندها عاند الطبيعة. ومن أفسد الغاية منها أفسد غاية الطبيعة.

لقد كان هوتمن متفائلاً بالحياة وبالناس الى أقصى حدود التفاؤل. وكان الانسان في نظره أقدس ما في الحياة. ولذلك أحبّ الناس، والعمال والبسطاء منهم على الأخص. واحبهم من سائر الاجناس والاديان واللغات. وكان صادقاً في حبّه. فما تكلفه تكلّفاً. ولا هو صوّره على الورق إلا لانه كان محفوراً في قلبه. ولا أعلنه بالقول إلا لانه كان يحياه بالفعل. وقد فتنت لبّه الحياة الاميركية الجياشة بالبعث والخلق والحركة، تدفعها الى الامام وتهيمن عليها روح ديمقراطية تمحو الفوارق بين الطبقات وتساوي بين الانسان والانسان من حيث الحقوق والواجبات والكرامة. وقد جمّلها خيال الشاعر ونزّهها عن الأغراض الخسيسة فاتخذ منها ما يشبه الدين وغنّاها أجمل أغانيه وبثها الطف مشاعره.

ولد وولت هوتمن عام ١٨١٩ في مزرعة قريبة من نيويورك. وكان ابوه فلاحاً ونجاراً من اصل انكليزي وامه من ارومة هولندية. فتعلم النجارة من والده. ثم راح يفتش عن معاشه. فاشتغل ساعياً في مكتب للمحاماة، ثم منضد احرف في مطبعة، ثم معلماً في مدرسة ريفية، ثم نجاراً، ثم صحفياً، ثم عاد الى حرفة والده يبني اكواخاً خشبية ويبيعها. وفي عام ١٨٥٥ طلع على العالم بمجموعة من الشعر عنوانها « اوراق من العشب » وعدد صفحاتها ٩٤. فما هش لها احد أو بش. والذين اتفق لهم أن طالعوها او ان كتبوا فيها كلمة استقبلوها بالاستخفاف والسخرية. وكانت الحرب الاهلية. فتطوع الشاعر لمؤاساة الجرحى في احد المستشفيات العسكرية. وكان قد بعث بنسخة من قصائده الى الكاتب الاميركي الشهير « أمرسن ». فاذا به يتلقى منه رسالة يصف فيها المجموعة بانها « قطعة فريدة من الحصافة والحكمة ما قدمت اميركا ما يماثلها بعد ». هذه الشهادة تأتي الشاعر المجهول من « حكيم كونكورد » الذي

وولت هوتمن

اجتازت شهرتـــه المحيط من زمان ، كانت كافية لتلفت اليه الانظار ولتدفع به الى الامام .

وراح هوتمن من بعدها ينظم ويضيف الى مجموعته ويعيد طبعها وينقحها من حين الى حين حتى بلغ بها الطبعة الثامنة في حياته، وحتى بلغت صفحاتها خمسة اضعاف الطبعة الأولى ويزيد. وقد ظـــل حتى آخر عمره يعتقدها ، كما كان يعتقد الجمهورية الاميركية، « تجربة» لا يستطيع دحضها او اثباتها غير الزمان . اما العوامل التي دفعت به الى القيام بتلك التجربة فكثيرة. اهمها مزاجه الرحب الذي كان يأبى التقليد مثلما كان يأبى الحصر والتقيد. وذلك المزاج هو الذي خلق له الحجج التي راح يتذرع بها للدفاع عن مذهبه او تجربته . فقد كان يقول ان القوالب الشعرية القديمة بلغت منتهاها على ايدي الذين سبقوه من عباقرة الشعراء. فلا جديد في محاكاتها او في مجاراتها . ومن ثم فالشعر القديم كاد ينحصر في التغني بالمرأة وبالبطولة وفي شؤون الطبقات العليا من الناس من غير ان يلقي بالاً الى ذلك الحضم الزاخر بالبطولة والجمال الذي هو العامة. لقد كان شعراً اريستوقراطياً. والعصر الجديد عصر ديموقراطي. فلا بد له من شعر ديموقراطي. والديموقراطية الجديدة تُعني الآلة مثلما تعني الانسان . وتعني العامل مثلما تعني صاحب العمل . فجدير بها ان تخلق شعراً يحس إحساسها وينبض انباضها ، وان تخلق لشعرها قوالب تتسع لما فيها من مد وجزر ، وامل وانطلاق .

أما اسلوب هوتمن في النظم فأسلوب مديـــد ، مترنح ، يجري — على حد قوله — جري الطائر في الهواء او السمكة في الماء . وهو بريء من كل زخرفة ووشي. فلا كناية ولا استعارة ولا طلاء. بل مفردات عارية تتزاوج فتأتيك بالصور وبالافكار والاحاسيس التي يسعى الشاعر الى خلقها في ذهنك وإثارتها في وجدانك . وقد يطول به النفَس الى حدّ ان تملّه . وعـــلى الاخص حيث يُكثر من الجمل المعترضة والمعاني الاضافيـة التي يضعها لك بين قوسين . ولكنك لا تستطيع إلا ان تحسّ فيه القوّة والايمان والاخلاص . فهو — كما شبّهه كاتب انكليزي من تِباعه — كالمقلع فيه الصخور الجبارة ، والحجارة المنحوتة ، والحجارة التي ما هندستها بعد مطرقـــة او إزميل وتلك التي تفتتّت فغدت حصى او غباراً .

وأعطيك مثالاً على اسلوب هوتمن ونفَسه المديد قصيدتـه المشهورة« تحية العالَم » وهي تملأ اثنتي عشرة صفحة من المجموعة وكل صفحة تنطوي على ٣٦ سطراً، وقد توّجها بعنوان فرنسي Salut au Monde فهو يبدأها مخاطباً نفسه هكذا :

« اليك يدي يا وولت هوتمن ، وهيا معي . »

ويقود وولت هوتمن وولتَ هوتمن من مشهد في العالم الى مشهد فيسأله عند كل مشهد : ماذا تسمع يا وولت هوتمن ؟ او ماذا ترى يا وولتْ هوتمن ؟ فيمضي يعدّد الاصوات والمشاهد التي يسمعها ويبصرها في الارض . فلا يترك جبلًا او بحراً او نهراً او مدينة من جبال الارض المعروفة وبحارها وأنهارهـــا ومدنها إلا ذكرها وذكر الشعوب التي ترتبط حياتها بها . حتى ليخيّل اليك انه يلقي غليك دروساً في الجغرافيا . ولكنـك ، إذا لم يخنك جَلَدك وبلغت آخر القصيدة ، خرجت منها شاعراً بانك كنتَ فرداً فأصبحت جماعة ؛ وكنت في عالم ضيق فاذا بك في عالم لا يحدّ ؛ وكنت منطوياً على نفسك فانتشرتَ بعيداً وفسيحاً في كون بعيد فسيح ؛ وكنت غريباً عن الكثير من شعوب الارض وبقاعها فاذا بكل شعب شعبك وبكل بقعة وطنك . وذلك الشعور بالتمام هو ما يرمي الشاعر الى إثارتـه فيك . وقد بلغ مأربه . واذ ذاك فأي بأس عليك أطال بك الطريق أم قصر ؟ أ أسرف دليلـك في الشرح أم لم يسرف ؟ ومن ثم فأنت تصفح له اسرافه في الكلام — أو قُلْ ثرثرته — مقابل ما تأنس من الدفء في قلبه، والنور في فكره، والخصب في خياله . وينتهي بك المطاف وفي أذنيك رنّة حلوة تتماوج في ختام تحية هوتمن للعالم اذ يقول :

« سلام أيها العالم !

حيثما قامت مدينة يتغلغل فيها النور والحرارة ، هنالـــك أتغلغل أنا كذلك .

وحيثما نبتت جزيرة وصوّب طائر اليها جناحـه ، صوبتُ اليها جناحي كذلك .

وها أنا أرفع يدي للكل —

أرفعها عموداً عالياً في الفضاء —

لتبقى من بعدي علامة

يبصرها الناس أينما كانوا وحيثما استقرّوا . »

قد ينفر ذوقك من خشونة اسلوب هوتمن ، ويضيق صدرك بترديده وثرثرته ، لكنك لا تستطيع إلا ان تجل ثورته على التصنع والتكلف والرياء في الكشف عن خبايا النفس وبث أشواق القلب ، وإلا أن تكبر روحه الفسيح الذي يتعانق

الذات العربية وموقفها من الحضارة الغربية

بقلم الدكتور عبد العزيز الدوري

لكل امة شخصية تاريخية ونفسية خاصة تنشأ عن ظروفها التاريخية والجغرافية وتبدو في وجهتها وقيمها المشتركة. وتحتاج الامة في أدوار القلق الى ان تفحص كيانها وان تفهم ذاتها لتستطيع النهوض ولتتمكن من مجابهة الموجات الخارجية. ويهمني في هذا المقال ان ابدي بعض الملاحظات حول الذات العربية وموقف العرب من الغرب.

ولعل فهم الذات يتم بملاحظة بعض القيم المشتركة والوجهة في الحياة. ولنذكر بعد هذا أن المجتمع العربي في كل عصر من عصوره يتدرج من البداوة الى الريف الى الحضارة المتأثرة بالغرب (أو بحضارة اخرى) تأثراً سطحياً أو محدوداً لدى الاكثرية وبصورة عميقة لدى الاقلية. وهذا يشير إلى تنافر في بعض القيم وإلى ضرورة تحديد وجهتنا في الحديث عن الذات العربية.

ولكن دور العرب في التاريخ ورسالتهم الكبرى هي في دورهم الحضاري وفي فترة الابداع التي تلت ظهور الاسلام. وما دام تكوين الدولة والمجتمعات الاسلامية يتصل بالعرب المتحضرين فان فهم الذات العربية يتركز على هذه المرحلة.

وليست هذه المرحلة الحضارية راكدة، بل تطورت ومرت بادوار. ومعنى ذلك محاولة فهم الذات خلال هذه الادوار، وذلك لملاحظة الأصيل من الطارىء والنامي المتطور من الراكد.

وهذه المحاولة لا تتحقق إلا بدراسة كنوز الفكر العربي التي تعبر عن القيم المشتركة. فندرس الحديث وكتب الفقه والأدب والانسانيات ككتب الغزالي، ونتابع دراسة التاريخ بروح نقدية، ندرسها كمختصين بنصوصها الاصلية، وندرسها في المدارس بصورة مبسطة لنبث الروح التي تنطوي عليها ولنغذي الذات الحالية القلقة.

وإن جاز أن أضع بعض الخطوط فاني ألحظ مبدئياً قيمة المعنويات والمثل في هذه الامة. وليس القصد من ذلك انها لاتقدر الماديات بل انها تحتاج إلى الهيكل الادبي والروحي، تحتاج الى العقيدة لتضحي ولتسير موحدة وإلا اشتعلت الأنانيات والفرديات والنزاعات الضيقة. وقد عبر عن ذلك ابن خلدون حين أكد ان العرب لا يخضعون إلا لرئاسة دينية.

وسائر الأرواح في الكون، والذي يخاطب «المصلوب» مخاطبة الأخ لأخيه فيقول له:

«مني اليك يا أخي الغالي:

«لا يهمنك أن الكثير ممن ينادون باسمك لا يفهمونك.

فأنا لا انادي باسمك، ولكنني أفهمك. وهنالك غيري كذلك.

نحن وإياك نسير معاً صامتين في خضم من الجدال والتأكيد، فلا نرفض المتجادلين ولا شيئاً مما يؤكده المؤكدون.

ونحن نسمع ما يثيره الجدال والتأكيد من نزاع وضوضاء. ولكننا يا رفيقي نمشي ولا قيد في أرجلنا. نمشي طليقين في كل أنحاء الأرض.

ولن نقف الا من بعد أن نترك لنا آثاراً بالغة في صحيفة هذا الزمان وكل زمان.

والا من بعد أن نملأ هذا الزمان وكل زمان بالأخوة التي تشدنا بعضاً لبعض.

كيما يعيش رجال الأجيال الآتية ونساؤها

اخوة وأحبّاء مثلما أعيش واياك أخوين وحبيبين.»

لو لم تقيّض الأقدار للشعر المنسرح زعيما من عيار وولت هوتمن لانتهى الى حيث انتهت ازياء أدبية كثيرة من قبله ومن بعده — الى النسيان. ولكن عبقرية هوتمن الجياشة بالحب والصدق والتعطش الى الحرية والايمان بجمال الحياة وقدسيتها هي التي كفلت لذلك النوع من الشعر البقاء حتى اليوم. فما انصرف هوتمن عن هذه الدنيا عام ١٨٩٢ حتى كانت شهرته قد طارت عبر المحيطات والقارات. ففي الولايات المتحدة وغيرها أندية ادبية كثيرة تحمل اسم هوتمن، وشعراء يحيون ذكره ويستلهمونه، ويسيرون تحت لوائه وعلى حدائه.

ميخائيل نعيمه